مراجعة كتب

لذّة النص وضلال المعنى(*)

عبد الرحمن مجيد الربيعي

- ١ -

تكبر مساحة الرواية العربيّة في تونس وتنضاف إليها أسماء مهمّة جديدة باستمرار. فبعد علياء التابعي ومحمّد علي اليوسفي اللّذين كتب كلّ منهما روايته الأولى المتميّزة نفاجأ برواية جديدة للصحفيّة آمال مختار الّتي اختارت لروايتها هذه اسم **نخب الحياة**. وتصدر هذه الرواية مزكّاة من ناشر هو روائي وصاحب مجلّة أدبيّة عريقة أعني به الدكتور سهيل إدريس. وأقول «مزكاة» لأنّ الرّجل نادراً ما يتساهل في نشر النصوص الّتي يضع عليها اسم داره (الآداب) رغم أنّنا لاحظنا منه اهتماماً خاصّاً بالأسماء النسائيّة في السنوات الأخيرة وتقديمه أكثر من اسم أغلبها يقدَّم للمرّة الأولى.

- ٢ -

من الممكن أن نقرأ رواية آمال مختار هذه عدّة قراءات شأنها شأن النصوص الأخرى. ومن حسن حظّها أنّ روايتها صدرت في زمن اختباء النقد الإيديولوجي الّذي يقيس الكتابات بمسطرة إيديولوجيا الناقد؛ فما حاد عنها أو خرج عليها حقّ عليه الرجم على أساس أنّ هذه رواية برجوازيّة تتحدّث عن هموم ليست أساسيّة لامرأة ضائعة تريد أن «تثور» ولكن ثورتها قاصرة، فتغادر تونس هرباً من ركود عالمها اليومي وعلاقتها الروتينيّة برجل وتذهب إلى العاصمة الألمانيّة بون لتكون تحت رحمة رجال لا رجل واحد، فتفشل ثورتها و«تبطل» وتعود أدراجها إلى تونس وبيتها وأسرتها.

لكن **نخب الحياة** ليست هكذا بل إنّها أكبر وأوسع بكثير.

إنّ أسئلة هذه الفتاة «سوسن» بطلة

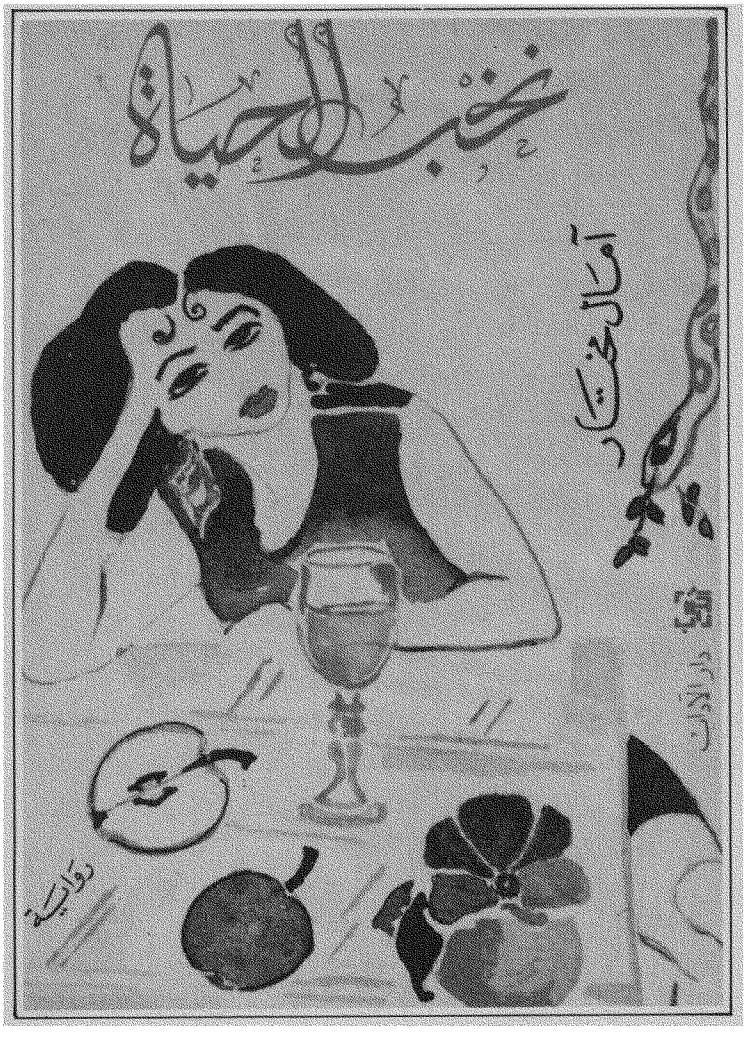

(*) آمال مختار، **نخب الحياة** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣).

الرواية ربّما تتلخّص في قولها «كان يجب أن أخوض التجربة بعيداً عن «هنا» الّذي أصبح الآن «هناك». تطلق قولها هذا وهي في «بون» مندسّة في بار منتظرة قدح البيرة من النادلة .

وها هي هناك في «بون» ولا ندري لماذا «بون» وهي لا تعرف اللّغة الألمانيّة؟ ربّما يكون الأنسب لرحيل كهذا باريس أو جنيف مثلاً، فالمرء يذهب دائماً إلى البلد الّذي يستطيع أن يفهم لغة أهله ولا يحمل فوق ضياعه ضياعاً آخر.

في بون لا تذهب إلى الحياة ولا إلى نبض الشّوارع بل تذهب إلى بار لأنّها مسكونة بأمنية لم تتحقّق وهي «أن أغرق في حالة سكر، أن أغيب عن الوجود فأهذي وأفقد القدرة على تملّك نفسي، وأبداً لم يتحقّق حلمي مهما عببت من مشروبات روحيّة».

ومن هنا يصبح تغيير المكان كأنّه استمرار في المكان الأوّل. وتجمعها الصدف بشاب مغربي يعمل في البار، يكون رفيقها والملجأ الّذي تذهب إليه وهي المفلسة الّتي لا تملك إيجار غرفتها في الفندق البسيط ولا ثمن زجاجات البيرة أو أقداح الويسكي الّتي تعبّها.

- ٣ -

لعلّ ذروة غضب سوسن - إن جاز لي أنّ أسمّي فعلها غضباً - هي تلك الحفلة الّتي حثّت سكّان الفندق عليها فإذا بهم ينفجرون رقصاً وشراباً.

لقد فقدت وعيها، فتحقّقت أمنيتها أخيراً ولا تدري أيّ رجل كانت له في تلك اللّيلة. لكنّها تفاجأ بنقود تكفيها تسديد إيجار غرفتها وشراء تذكرة العودة إلى تونس.

ذهبت وكأنّها لم تذهب، حملت معها «الهنا» إلى «هناك» وظلّت في الـ «هناك» ماكثة في دوّامة «الهنا»، لا همّ لها إلاّ أن تسكر. فلتسكر «هنا» إذا كان الأمر هكذا!

لقد وجدتني أنقاد إلى رأي ربّما يكون ضدّ «موضوع» الرواية ولكن ليس الأمر «هكذا» وإن كانت الرواية «هكذا» كما لخّصتها ولو بشيء من التعسّف، فالروايات لا تلخّص إن لم يكن تلخيصها هذا على قدر من التعسّف حتماً.

- ٤ -

هذه الرواية عبارة عن تداعيات للبطلة سوسن في بون. هناك مزج بين حاضرها واسترجاع لماضيها: الرّجل الّذي تركته وتقدّم لنا، تعرّفها عليه بشكل صاعق، ما إن نطق باسمها حتّى وقعت في غرامه، هو يعرفها، وهي تعرفه وإن لم يلتقيا، ثمّ يكون لقاؤهما هذا بداية لعلاقة.

هو شاعر، ومدرّس، يصدر ديوانه الأوّل وهو معها. في بون تتحدّث عنه في انثيالات أعماقها وهذيان سكرها. تتذكّر. تتذكّر. ثمّ لا غرابة أن تعود وربّما إليه.

ولئن كانت طريقة التداعي هذه في القصّة القصيرة أو الرواية مستهلكة وخاصّة في قصّتنا العربيّة، فإنّ كتابة آمال مختار لروايتها هذه أنقذتها شاعريّتها العاليّة؛ وهي مسألة لم تتوفّر لكثير من النصوص العربيّة التي نجدها تقع في نثريّة متحجّرة تورث الصداع.

كما أنّ لغة آمال مختار على قدر كبير من الاقتصاد الفاعل ضمن حدود حاجة النصّ، وشاعريّة هذه اللّغة لم تبعدها وتأخذها في مناجيات كانت مطبّاً للكثير من النصوص الّتي تكتبها المرأة العربيّة.

إنّها واعية لدور اللّغة ولسحرها كذلك. لذلك فإنّ موضوعاً كالّذي دارت حوله روايتها لم يأخذ منها إلاّ ١١٢ صفحة من القطع المتوسّط، يذهب معها القارئ دون إعياء متمتّعاً بما تصوغه بنعومة أخّاذة.

- ٥ -

إنّ نخب الحياة الّذي تشربه «سوسن» في تونس أو بون هو قتل للحياة في وجهه الآخر؛ فالاحتفاء بالحياة ليس بالغياب عنها وإنّما في عيشها والامتلاء بها؛ وهذا لن يكون إلاّ بالصحو الجميل، الصحو اللّذيذ.

لنعد إلى الرواية ونأخذ منها هذا المقطع. تقول سوسن في تداعياتها «وحتّى هنا في بون حيث اعتقدت أنّ الحريّة كاملة اكتشفت أنّ الأمر ليس كذلك، وبدأت أشكّ في وجود الحريّة كاملة».

ولنتساءل عن هذه الحريّة الّتي لم تجدها كاملة. فإن كانت حريّتها الشخصيّة فهي كاملة وأكثر اكتمالاً إذْ أصبح في مقدورها أن تقود رجلاً إلى غرفتها في الفندق، وهو

أمر غير مسموح به في كلّ البلدان العربيّة مثلاً ـ على حدّ علمي ـ.

وهي لم تعرف شيئاً عن المدينة ولا عن البلد. لم تقرأ الصحف، لم تعرف التنظيمات، لم تشاهد الأفلام، لم تسمع الأخبار. فكيف لها أن تحكم؟

لكن «سوسن» تعود وتقول بشيء من التوضيح عن هذه الحريّة الّتي لم تجدها: «شيء ما جئت به من هناك منعني من أن تكون حرّيتي كاملة هنا. شيءٌ ما لا أقدر على انتزاعه أو قلعه منّي مهما فعلت وأينما كنت!».

وهذا الرأي الّذي تسوقه «سوسن» يؤكّد قصور مداركها عن فهم معنى الحريّة. إنّها تراها في التصرّف الشخصي فقط رغم أنّها تأخذ مداها فيه. ولعلّ هذا الشيء الّذي يمنعها كما تعلن هو التربية والتقاليد الّتي تفتح أعيننا عليها وتصبح جزءاً منّا.

إنّ «سوسن» في الخامسة والعشرين من عمرها ولذا فإنّ همّها في «الحريّة» لم يتّسع ليأخذ معنى شموليّاً بل ظلّ في حدوده الذاتيّة الضيّقة، وعندما نعود ونتوقّف عند عمر البطلة هذا (٢٥ عاماً) فلعلّنا نعذرها إلى حدٍّ ما رغم أنّ الإنسان العربي يولد «شيخاً» وغالباً ما يعرف طريقه إلى السجن وهو في الثامنة عشرة من عمره.

إنّ سوسن رغم عمرها هذا تظلّ في أتون الهمّ الخاصّ الساخن وهو أمر له بعض من تبرير عندما يتعلّق بامرأة عربيّة مُواجَهَةٍ بأكثر من سلطة قمع: من الأسرة إلى المجتمع وما يزخر به من قيم ومُثُل وتقاليد.

ـ ٦ ـ

شيء أخير أودّ أن أسجّله بشأن هذه الرواية ويتعلّق بخاتمتها الّتي لا تبدو مقنعة. فما إن تصل «سوسن» دارها بتونس حتّى يأتي من يدقّ الباب حاملاً لها رسالة ليس فيها إلّا سؤال واحد: «تلك اللّيلة، ألا تحبّين الإعادة؟» واللّيلة المعنيّة هي تلك الّتي ثملت فيها مع سكّان الفندق فكانت من حصّة الرّجل صاحب الرسالة.

ويكون ردّها على السؤال ـ الرسالة بأن تكتب على الورقة نفسها: «لا أريد أن أقول لك أحبّك»؛ والجواب هذا «يهبط» بالرواية ولا يجعل خاتمتها ذروة من ذراها وهو على قدر من السذاجة الناشزة عن خصب حواراتها.

إنّنا نتساءل فقط: كيف عرف عنوانها؟ وبأيّ وسيلة نَقْلٍ غادرَ بون ليصل معها إلى تونس في الوقت نفسه؟ وفي أيّ مكان يريد أن يعيد تلك الليلة؛ فهو في تونس الآن لا في بون؟

ـ ٧ ـ

مآخذ أخرى قد نجدها في الرواية، لكنّها تصل إلى ما يشبه الغياب أو الغفران أمام «لذّة النّصّ» هذا، وهي لذّة تنتصر على ما فيه من مآخِذ ليبقى طعمه الجميل.

تونس

على «الطريق»... من جديد

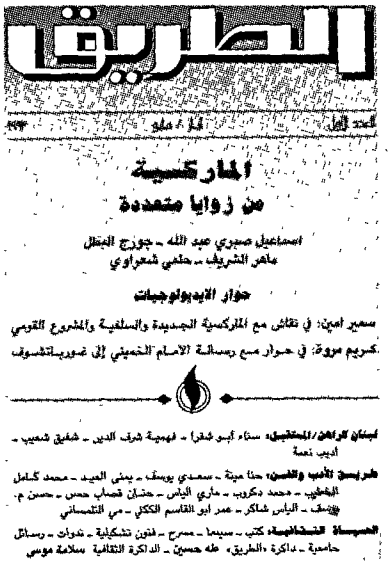

الطريق
العدد الأول ... أيار / مايو ١٩٩٧
الماركسية
من زوايا متعددة
اسماعيل صبري عبد الله ـ جورج البطل
ماهر الشريف ـ حلمي شعراوي
حوار الايديولوجيات
سمير امين: في نقاش مع الماركسية الجديدة والسلفية والمشروع القومي
كريم مروة: في حوار مع رسالة الامام الخميني إلى غورباتشوف
لبنان الراهن / المستقبل: سناء أبو شقرا ـ فهمية شرف الدين ـ شفيق شعيب ـ اديب نعمة
طريق الأدب والفن: حنا مينة ـ سعدي يوسف ـ يمنى العيد ـ محمد كامل الخطيب ـ محمد دكروب ـ ماري الياس ـ حنان قصاب حسن ـ حسن م. يوسف ـ الياس شاكر ـ عمر ابو القاسم الككلي ـ مي التلمساني
الحياة الثقافية: كتب ـ سينما ـ مسرح ـ فنون تشكيلية ـ ندوات ـ رسائل جامعية ـ ذاكرة «الطريق» طه حسين ـ الذاكرة الثقافية سلامة موسى

في زماننا نصبو إلى أصوات ترفض أن تستسلم للأسود المغبرّ... وللأصفر البرّاق. نتطلّع إلى من يتمسّك بالقليل الباقي من أحلام داسَها جميعُ الجلّادين، باسم القوميّة حيناً، وباسم الدِّين والطبقة العاملة أحياناً أخرى.

نفتقد وَقْعَ أرواحنا في عالمٍ لم يعدْ لنا، رغم أنّنا نحنُ من دفع أغلى ما عنده على طريق تشييده.

«صوتُ الذين لا صوتَ لهم» يُقمع أسبوعاً كاملاً؛ عماراتٌ قبيحة تحجب عنّا البحر والهواء؛ حجّاج يزحفون إلى المغتصب بغطاءٍ دينيّ؛ نصر حامد أبو زيد يُمنع من الترقية الجامعيّة وقد يُفرض عليه الطلاقُ من زوجته لأنّه «ارتدّ» عن الإسلام؛ مثقّفون بأعداد متزايدة يتخلّون عن مواقعهم ومنابرهم لصالح مواقع الدولة القطريّة ومنابرها متذرّعين بالواقعيّة والتكتيك و... العمل ضمن منطقة «الخصم»!

تحيّة لك يا محمد دكروب، وتحيّة لزملائك، على قراركم إعادة إصدار **الطريق** بعد توقّف عامٍ كامل. إنّ قرار الاستئناف، وبذلك النَّفَس الكفاحيّ الديموقراطيّ التعدُّديّ الذي يكشفه عدد **الطريق** الجديد، لهو دفقةُ هواء جديدة لرئاتنا التي يكاد أن يخنقها النِّفطُ والاعتباط.

س. س. ا.